

مقارنات خفيفة بين متنبي المشرق ومتنبي المغرب

الاستاذ ابو القاسم محمد كرو

تكون هذه الكلمة بداية حافزة لدراسات او ابحاث
أخرى واسعة تدور حول الشاعريين ان بالمقارنة او
التعريف ، وخاصة حول شاعرنا المغربي المنسي
المغمور .

حياة أبي الطيب المتنبي

حياة المتنبي معروفة ، فقد ولد بالكوفة عام 303 هـ
915 م وانتقل وهو صغير بين شيوخ القبائل وحكام
المناطق الصفار يستعطي بشعره ويتميش منه ... وبلغ
قمة الشهرة الادبية في بلاط سيف الدولة الحمداني
كما خلد الشاعر أعمال هذا الامير وجهاده في قصائد
كثيرة ... وانتقل المتنبي الى كافور في مصر ، فمدحه
بأشعار غريبة كقوله فيه :

أبا المسك هل في الكأس فضل انا له

فاني أغنى منذ حين وتشرب .!

تم هرب منه وهجاه هجا ، لاذعا عنيفا ، ومما قاله
فيه :

صار الخصى امام الآبقين بها

فالحمر مستعبد والعبيد معبود

العبد ليس لحر صالح باخ

لو أنه في ثياب الحر مولود

ما كنت أحسبني أحيا الى زمن

يسي، بي فيه عبد وهو محبود

جوعان يأكل من زادي ويسكني

حتى يقال : (عظيم القدر مقصود)

ثم طاف أماكن عديدة مدح فيها كل من اغدق عليه

للمتنبي شهرة عريقة وصيت عريض منذ كان
يعيش في النصف الاول من القرن الرابع الهجري الى
اليوم ، فقد كان ولا يزال ويملا الدنيا ويشغل الناس،
وليس الحديث عنه في تونس وبعض الاقطار العربية
الاخرى خلال عام 1965 سوى دليل جديد على أنه ما زال
مل. السمع والفكر والقلم في دنيا الادب العربي .

ولكن الناس الذين يذكرون في كل مناسبة وبلا
مناسبة اسم المتنبي ويتلمظون بحكمه وأشعاره قلما
يذكرون معه شاعرا آخر ، عاصره وتشابهه معه في
جوانب كثيرة من الحياة والشعر والملابسات . ولعل
غيب هذا الشاعر الوحيد هو أن مطلعته كان في
المغرب ، !!

والغريب ان النقاد القدماء قد فطنوا الى وجوه
التشابه بين الشاعريين فاطلقوا على شاعر المغرب لقب
(المتنبي) ولكنهم لم يزيدوا عن ذلك شيئا ... فلم يولوا
عنايتهم بشعر وحياة (متنبي المغرب) كما فعلوا مع
متنبي المشرق !!

ولئن كان (المكان الغربي) سببا في هذا الهمال
فانه لم يكن - في نظري - بالسبب المباشر ، وانما
سببه ما ملأ شعر متنبي المغرب من الدعوة الدينية
المخالفة لمذهب معظم مؤرخي الادب ونقاده في العصور
السالفة .

ولا يتسع المجال هنا لان نلسم بحياة الرجلين
وجوانب التشابه والاختلاف بينهما ، لذلك اكتفى هنا
بوضع خطوط عامة عن حياتهما وملاحظات سريعة عن
عناصر التشابه والاختلاف بين الشاعريين ، أملا أن

المال طمعا في ثنائه او خوفا من سلاطة هجائه ، وانتهى آخر الامر الى شيراز من بلاد فارس حيث مدح امرء العجم الذين زعم انه يثير حمية العرب للتخلص من سيطرتهم .

واثناء عودته الى بغداد قتله جماعة من الاعراب - في خبر يطول - طمعا في امواله او انتقاما من فحش هجائه لبعضهم ، وكان مقتله في 28 رمضان عام 354 هـ الموافق 27 - 9 965 وبذلك يكون قد عاش خمسين سنة ميلادية وهو عمر قصير نسبيا .

وقد امتاز شعره بقوة الاسلوب وكثرة الحكم وزين النغم . كما امتلأ بالفروز والتعالي ومدح النفس ، ولعل هذه الخصائص بالذات كانت من أهم يوانث الاهتمام به وبصاحبه منذ القدم .

حياة متنبى المغرب

أما متنبى المغرب فهو : أبو القاسم محمد بن هانى، المهلبى الازدى المعروف بابن هانىء الاندلسى او المغربى تميزا له عن ابن هانىء البغدادى المعروف بأبى نواس . أصل ابن هانىء من المهديّة بتونس ، فقد هاجر أبوه منها او من احدى قراها الى الاندلس ، وهناك ولد محمد عام 320 هـ (I) 932 م ، وبدأ حياته فى بلاط حاكم اشبيلية الذى خاف عليه من رعاياه حين تقموا عليه مجونه وفلسفته العقائدية ، فنصح به بترك المدينة ريثما يهدأ أهلها . وكانت الدولة الفاطمية فى تونس قد بلغت أوج عظمتها ... فاجتاز ابن هانىء المضيق قاصدا القيروان ، وفى المغرب الاقصى عام 347 هـ صادف هناك القائد جوهر الصقلى فدحه بوصفه قائدا فاطميا مدفوعا الى ذلك بعقيدته الشيعية التى ورثها عن ابيه ، والتى من أجلها اضطهد فى الاندلس :

ولما التقت أسياها ورماحها

شراعا ، وقد سدت على المسالك

أجزت عليها ، عابرا ، وتركتها

كان الشايا ، تحت جنبي ، أرائك

وما تقموا الا قديم تشيعى

فنجى هزبرا شده المتدارك

فلما صادف جوهر فى طريقه الى المعز يادر الى مدحه باعتباره سيفا من سيوف الدعوة ، لا طمعا فى عطائه . يدل ذلك على ذلك أنه لم يقضب على جوهر حين

قابل مدحه الفخم بعباء زهيد غير لائق ، بل ظل يكبره ويعظم شأنه الى آخر أيام حياته . وهذا جانب مهم من أخلاقه يختلف فيه تماما عن المتنبي الذى كان بمثابة بائع متجول يبيع الشعر لمن يدفع الثمن الاعلى ... والا انقلب هاجيا وحث جواده الى مكان آخر ومدوح جديد ... فهو فى هذا كبشار انذى يقول :

فان تعطنى أفرغ عليك مدائحي

وان تأب ، لم يضرب على سداد !

ركابى على حرف ، وقلبي مشيع

ومالى بأرض الباخلين بلاد !

ثم انتقل ابن هانىء الى (المحمدية) بالجزائر حيث أقام مدة لدى اميرها جعفر ابن حمدون ، وأخيرا استقر فى بلاط المعز الفاطمى بالقيروان - مطمحه الاعلى وهدف حياته - حيث أشهد فيه نصف ديوانه وانشد النصف الآخر فى رجال دولته السياسيين والعسكريين .

ويرجح أنه اتصل بالمعز حوالى عام 354 هـ فنال لدى المعز كل تقدير واعجاب ورعاية ، وبز بشعره كل شعراء البلاط ، وأصبح شاعر الدولة الرسمى .

ولما انتقل المعز الى مصر بعد فتحها . وبناء مدينة القاهرة ، خرج الشاعر معه عام 361 هـ . وطالت الرحلة فى الطريق بضعة شهور ، فلما وصل المعز الى حدود مصر استأذنه الشاعر فى العودة الى القيروان لجلب عياله وماله فأذن له ، وفى برقة اثناء عودته وجد مقتولا فى 23 رجب 362 هـ 16 - 5 973 م تقريبا ، وبذلك يكون قد عاش أقل من المتنبي بتسبع سنين . ولكن انتاج ابن هانىء الشعرى أكثر كما من المتنبي ، وان كان أقل منه شهرة لاسباب سبق ذكرها .

فلما بلغ نعيه الى المعز فى القاهرة ، تأسف لموته ، وقال : (انا لله وانا اليه راجعون ، لقد كنا نريد أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك) .

شعر ابن هانىء

أما من الناحية الفنية فان شعر المتنبي أكثر جاذبية وأثرا فى النفس ، الا أن شعر ابن هانىء يطاوله أسلوبا وقد يفوقه جزالة وسبكاً وطول نفس ، ولكنه فى بعض قصائده يحتاج المرء الى كد عقل لفهمه . وابن هانىء أقوى واقدر الشعراء القدماء على التشبيه والتمثيل ، وهذا « فون كريمه المستشرق

(1) فى رواية أخرى تام 326 ، ولكننا نرجح 320 عن ابن هانىء . سلسلة « اعلام المغرب العربى » .

الاماني يصفه بأنه «قوى البيان ، كثير التمثيل ، جيد الالفاظ ، حسن الوصف ، لا يقدر على مسابرة في هذا الوصف الا القليل» (2) ويلخص الدكتور احمد أمين خصائص ابن هاني، الشعرية بقوله :

« والحق ان شعره - اي ابن هانيء - فخم ضخم مملوء بالقعقة ، جاهل الاسلوب ، يشبه في ذلك المتنبي ، غير أن المتنبي ادق معنى وابن هانيء أطول نفسا . ومن قرأ شعره يرى أن فيه خصائص :

I - أن من فهم كلامه بعد التعب تلذذ من شعره ، وأعجب بفنه .

2 - طول نفسه ، فهو يتعرض للمعنى حتى يصفيه شأن ابن الرومي لولا كثرة غريبه .

3 - عنايته بالمقابلة بين الشطر الاول والشطر الثاني في كثير من أبياته .

4 - شبه شعره بالشعر الجاهلي في القوة ، ومثانة السبك وقدره استخدام الالفاظ وبساطة المعاني عند فهمها .

5 - اتصال شعره اتصالا كبيرا بالدين ، اذ كانت دعوته فاطمية متأثرة بتعاليمهم ، وكل الاصطلاحات الاسماعيلية مبثوثة في ديوانه، (3)

تهمة التقليد

وقد اتهم ابن هانيء بأنه يحاكي المتنبي ويقلده في أشعاره ، وهي تهمة باطلة لا تستند الى حجة تاريخية او علمية . واذا كانت بعض المعاني تاتي متشابهة او متقاربة في أشعارهما فلا يعنى هذا أن شاعرنا يقلد شاعر الكوفة وانما بواعث القول وآثار الثقافة - وخاصة منها الشعر الجاهلي - فيها متشابهة. ولدينا من الأدلة ما يقطع بأن ابن هانيء لم يطلع على ديوان المتنبي الا في زمن متأخر ، وبعد بلوغه قمة شاعريته ونضجه . (4)

عناصر التشابه

وهذا التشابه في بعض الابيات او المعاني يعود الى معطيات أخرى غير التأثير الشخصي . وقد أمكنني أن اجمع خيوط هذا التشابه الاوسع مدى ، والتي يلتقى فيها الشعاران التقاء واضحا وشاملا لحياتهما وأشعارهما بوجه عام ، في النقاط التالية :

I الحياة القصيرة - نسبيا - التي عاشها الرجلان لا سيما ابن هانيء (4I سنة) .

(2) غلبة المديح على شعرهما .

(3) تخصيص معظم أشعارهما مدائح للامراء والحكام .

(4) عيشهما في ظل العروش ، وعدم استطاعتهما

الحياة خارج البلاط .

(5) شدة الحساسية وقوة تأثير العقل عند

الشاعرين .

(6) عزة النفس وترفعها عن التذلل والتزلف

الخسيس الى المدوحين .

(7) الغلو والمبالغة في وصف المدوح .

(8) استلهام القرآن والشعر الجاهلي . ويظهر أثر

هذين خاصة في قوة التعبير وجزالة الالفاظ ثم في

تضمن بعض الآيات او معانيها .

(9) شعرهما سجل حافل لتاريخ البطولة والجهاد

وللامجاد العربية في المغرب والمشرق ، فقد صور ابن

هانيء جهاد المعز الفاطمي وبطولات جيشه في البر

والبحر ، وحروبه الظافرة في افريقيا وآسيا وأوربا .

وكذلك فعل المتنبي مع جهاد سيف الدولة وصوده

الشجاع ضد الروم .

IO حماسة ابن هانيء للعقيدة الفسطاطية

- الاسماعيلية - وصدوره عنها في جميع مدائحه -

لا سيما قصائده في المعز باعتباره ملكا عربيا عليه واجب

تحرير العرب من الحكم الاعجمي وتوحيد المسلمين

في خلافة شيعية عادلة .

والمتنبي - الذي له صلة عقائدية واضحة

بالاسماعيلية عن طريق القرامطة - شبيه بابن هانيء

في حماسته هذه ، اذ هو يتحمس للعروبة ويصدر

عنها في مدائحه ليسف الدولة وكان يعقد الآمال عليه

في تحرير العرب من الاعاجم وحمائيتهم من الروم ،

وتوحيدهم في ظل عرش عربي يكون له فيه نصيب

ومكانة !؟

II تالمهما - الظاهر في اشعارهما - مما أصاب

العرب خاصة والعالم الاسلامي عامة من تشتت وانقسام

من ناحية ، وخروج كثير من اطرافه عن حكم العرب

من ناحية أخرى .

وفي هذا يقول ابن هانيء :

(2) ظهر الاسلام - لاجد أمين ج 3 ص 337 .

(3) نفس المرجع والصفحة .

(4) انظر بلاشير في كتابه : «ديوان المتنبي في العالم العربي» الترجمة العربية ص 41-55

سوام رفاع بين جهل وحيرة
وملك مضاع بين ترك وديلم
ويقول المتنبي :

وانما الناس بالملوك وما
تفلسح عرب ملوكها عجم

أوجه الاختلاف

أما أوجه الاختلاف بين الشاعرين ، فهي كثيرة ،
وان كانت أقل عددا من عناصر التشابه . ويمكننا
ايجازها وحصرها في النقاط التالية :

= 1 =

عند ابن هانيء :
ميله الى حياة اللهو وامتناع النفس بلذائد الحياة
واتلاف المال في سبيل ذلك .

وعند المتنبي :

ميله الى حياة المجد وانتقشف وجمع المال .

= 2 =

عند ابن هانيء :
طموح محدود ، وآمال تحققت منذ صار الشاعر
الاول للمعز .

وعند المتنبي :

طموح جارف ، وفشل في تحقيق آماله .

= 3 =

عند ابن هانيء :
أفكار فلسفية غامضة ، ومعان صعبة وعواطف
عادية في بعض أشعاره ، الا ما اتصل منها بالقييدة
الشيوعية ودولة المعز .

وعند المتنبي :

أفكار عميقة ، ومعان واضحة ، وعواطف حارة في
أكثر شعره .

= 4 =

عند ابن هانيء :
شعور بالرضى والاطمئنان لما وصل اليه في حياته ،
وعدم الشكوى والتبرم من الحياة والناس .

وعند المتنبي :

تردد على الاوضاع ، وشعور دائم بالمرارة وسوء
الحظ ، وشكوى من الزمان وسخط عنيف على الناس
والمجتمع .

= 5 =

عند ابن هانيء :

نظرة عادلة للحياة ، مع عدم السخط على المجتمع
او الشعور بمركب التفوق .
وعند المتنبي :

نظرة عميقة للحياة ، وشعور جارف بالتفوق
وتحقير شديد للبشر كافة .

= 6 =

ابن هانيء :

بحث ابن هانيء عن المثل الاعلى في شخص آخر
فوجده في المعز فاكتفى به ، وعاش بمجسده ويعظمه
بحرارة واخلاص ، لما بينهما من رابطة دينية مقدسة .
والمتنبي :

كان مثله الاغلى منحصر في ذاته ، لهذا لم يرضه
أحد . ورغم تقديره العظيم لسيف الدولة فانه لم يكن
يراه الا شبيها بمثله الاعلى وليس هو بالذات .

= 7 =

عند ابن هانيء :

ميل في بعض أشعاره الى التكلف والصنعة رغم
مواهبه الشعرية العالية ، وكثرة تفصيله للمعاني الى
حد الاطناب والتكرار .

وعند المتنبي :

غلبة انطبع والموهبة على أشعاره ، ومقدرة على حشو
الالفاظ القليلة بالمعاني الكبيرة والعميقة مع الايجاز .
مع وجود عيوب ابن هانيء في بعض أشعاره لا سيما
التصنع والحشو والمبالغة .

= 8 =

عند ابن هانيء :

الحكمة منتشرة في شعره ، ولكنها ضعيفة غالبا ،
الا ما جاء في الرثاء فهي أكثر نجاحا .

وعند المتنبي :

الحكمة كثيرة في أشعاره وهي قوية المعنى والتأثير .
وقد جرت مجرى الامثال ، واليها يعود شطر كبير من
شهرة المتنبي ومكانته الادبية .

= 9 =

ابن هانيء :

يستمد قوته الشعرية من عقيدته الاسماعيلية وهو
دون ذلك شاعرية فيما عداها .

والمتنبي :

قوته الشعرية مستمدة من ذاته - وما يملأ نفسه
من طموح وآمال كبار .

خاتمة

هذا مجمل القول في شاعرين عظيمين عاشا في عصر واحد وظروف سياسية متشابهة ، وان اختلفت حياتهما الخاصة ومعطيات هذه الحياة عند كل منهما . ولئن كان المتنبي قد ظفر باعجاب العالم واهتمام النقاد والباحثين منذ الف سنة الى اليوم - ولا يزال - حتى احتفل بالقيته مرتين (5) - فان ابن هانيء جدير

هو الآخر بنفس الاحتمال (6) والعناية والاهتمام من النقاد والدارسين ، لا لانه شاعر عظيم وند للمتنبي فحسب بل ولان ديوانه يمثل حلقة هامة جدا من تاريخ المغرب العربي سياسيا وأديبا ودينيا .

وعسى أن نرى أدباء تونس بل المغرب العربي كافة يحتفلون قريبا بالقيّة شاعرهم الخالد : (ابن هانيء) المشهور أيضا بـ (متنبي المغرب) .

- (5) كانت الاولى عام 1936 وأما الثانية 1965 فهي بصحف تونس وبعض البلاد العربية الاخرى .
(6) مرت الآن ألف سنة قمرية على وفاة ابن هانيء . كما مرت ألف سنة شمسية على ميلاده .

ان اللغة لا تقبل الازدواج ، والامة التي تتخذ لها لغتين قوميتين (وهذا هو معنى الازدواج) احدهما قوية غنية سيّدة في قومها وفي العالم ، والثانية ضعيفة تكافح من أجل البقاء يجهلها الاكثرون ويحتقرها الكثيرون ، هي أمة تحكم بنفسها على لغتها .
ان الازدواج لا يكون الا بعد تحرير اللغة المضطهدة واحلالها المكان اللائق بها ، عند ذلك يمكن مزاجتها بلغة تستطيع مساعدتها ولكنها لا تستطيع منافستها .

والتعريب عقدة لا مشكلة .

أما ان نناقش مشاكل اللغة ووسائل تطورها ، فهذا مظهر من مظاهر الحيوية والتطلع والغيرة على لغتنا ، وأما ان نناقش التعريب في التعليم والادارة والحضارة باعتباره مشكلة فذلك مظهر عقدة خلفها في نفوسنا الاستعمار الفكري واللغوي .

وهل هناك عقدة أعقد من أن يترأى الى أزماننا ، بله أن نفكر أو نعتقد ، في التخلي عن لغتنا التي هي جزء منا ومقوم لذاتنا لحساب لغة أخرى مهما تكن قوتها وفعاليتها وصلاحيتها ؟ وهل هناك عقدة أعقد من أن نناقش في صلاحية العربية للتعبير والتعليم والتفكير والادارة ؟ وهل هناك عقدة أعقد من أن نجعل من تعريب التعليم والادارة مشكلة نتغلب على جميع مشاكلنا الا هذه المشكلة فاننا لا نستطيع التغلب عليها .

ان القضية في نظري قضية عقدة لا تقل عن العقدة النفسية التي تصيب الشخص فيتوهم المرض أو العجز أو الموت ، ويحاول الطبيب أن يقنعه بصحته وقدرته ويعدّه عن الموت ، ويشير عليه بأدوية تعيد اليه اعتباره ، ولكنه يضيف الى اتهام نفسه اتهام الطبيب بالجهل والقصد السيء ، ومن ثم تنضاف عقدة جديدة الى عقده السابقة وهكذا تتضاعف العقدة كما يتضاعف حجم كرة الثلج كلما تدحرجت في سهل مثلوج .

عبد الكريم غلاب